جمالية العتبة النصية في رواية ابنة الرماد لفوزية عرفات .

The aesthetics of the textual threshold in the novel, Daughter of Ashes by Fawziya aeafat

مريم زايدي*
جامعة القيروان- تونس
meriemmouaad@gmail.com

تاريخ الارسال:05-10-2022	تاريخ التقييم:24-12-2022	تاريخ القبول:30- 12- 2022

الملخص:

يتناول هذا المقال مسألة العتبة النصية ودلالة الاغتراب في المنجز الروائي عند اللبنانية فوزية عرفات من خلال روايتها " ابنة الرماد " التي تندرج ضمن السرد الذي يعنى بتصوير الاغتراب الذي يعانيه الفرد العربي اللبناني الذي يتسم بالتنوع الثقافي والديني إذ تعد لبنان مثالا وموطناً يعشعش فيه الاغتراب بكل ألوانه باعتباره موطنا جمع كل المتناقضات وكل الطوائف الدينية والإثنيات العرقية.

ولعل عتبة العنوان والغلاف مؤشر دلالي يسهم في تشكيل هوية النص وهذه الظاهرة تبدو جلية واضحة في هذه الرواية؛ ولأنّ الشعور بالغربة والقلق والخوف شكّل هاجسا لدى شخوص الرواية، وتمثل كتيار مسيطر على كل معطياتها الفكرية والفنية، فقد تمكنت الروائية من تجسيد ظاهرة الاغتراب من خلال المنجز الروائي الذي يصور مشاعر التناقض والإحباط واليأس ...

إن أول ما يلفت انتباهنا حينما نقرأ نصا أدبيا هو ما يحيط به، مثل العنوان، الغلاف، الصور، الفاتحة، المقدمة، التصدير، الهوامش، الخاتمة ...إلخ والمتصفح في الرواية لا شك يلحظتلك الإيحاءات والدلالات التي لا يمكن المرور بها دون قراءة وتأويل، ولهذا أثرنا هذه التساؤلات:

. ما الاستراتيجية التي يتأسس عليها بناء العنوان في الرواية وما خصائص الخطاب الموزاي فيها كيف تمظهر الاغتراب في بنية العنونة وخطاب العتبات؟

. كيف استخدمت فوزية عرفات العنوان ومكوناته؟

. ما مدى تأثير العتبة النصية فيالمتلقي؟

*المؤلف المراسل.

الكلمات المفتاحية:العتبة، الاغتراب، الرواية.

Abstract :

This article addresses the issue of the text threshold and the significance of alienation in Lebanon's Fawzia Arafat fiction through her novel The "Daughter of the Ashes", which is part of the narrative concerning the portrayal of the alienation of the Lebanese Arab individual, which is characterized by cultural and religious diversity. Lebanon is an example and home where alienation is found in all its colours as the home for the collection of all contradictions and all religious and ethnic ethnic communities.

The threshold of the title and the cover may be a indicative indicator that contributes to shaping the identity of the text and this phenomenon is evident in this narrative; Because the sense of alienation, anxiety and fear was an obsession with the character of the novel, and represented as a dominant current in all its intellectual and artistic subjects, the novelist was able to embody the phenomenon of alienation through a novelistic achievement depicting feelings of contradiction, frustration and despair...

The first thing that draws our attention when we read a literary text is what surrounds it, such as the title, the cover, the photos, the light, the introduction, the export, the margins, the conclusion... etc. The browser in the novel no doubt notes those suggestions and connotations that cannot be passed without reading and interpretation, so we raised these questions:

-What strategy is underpinning the construction of the title in the novel and what characteristics of the Mozawi discourse in it?

How did Fawzia Arafat use the title and its components?

-How much does the text threshold affect the recipient?

Keywords: threshold, alienation, novel.

مقدّمة:

يعد موضوع الاغتراب من القضايا التي لا يخلو منها أدب من الآداب العالمية فهو عبارة عن شعور إنساني ينجر عن التحولات النفسية التي يعيشها الإنسان في حياته ما يجعل الفرد يشعر بالوحشة و التشاؤم فيتخذ موقفا مغايرا إزاء محيطه، ولعل تمظهر الاغتراب في الأدب مؤشر على التناقضات التي يحياها المبدعون على أصعدة شتى فيتلون الجنس الأدبي بنفسية مؤلفه، و يتمظهر كمعادل موضوعي لحالات الاغتراب و الأزمات المعاشة، ولعل العنوان في الرواية مؤشر أساس على هذه الحالة، لأنه المسؤول على تحديد هوية النص وإحساسه.

تعد عتبات النص أو ما اصطلح على وسمه كثير من النقاد " **النص الموازي** "paratexte"عوالم حافلة بالنص الأدبي و مقومات أساسية في بلاغة النصوص و جماليتها، وقد توسع كثير من النقاد الغرب في إيجاد مسميات ترصد هذه العتبات التي تقف مع النص الأصلي في عالمين متوازيين،ومن بين تلك المسميات: النصوص المصاحبة، سياجات النص،المناص، ... و لن يختلف اثنان في كون الإنشائي الفرنسي" **جيرار جينيت** " " G. Genette"أحد أبرز النقاد الذين أولوا أهمية تنظيرية بالغة أخرجتها إلى دائرتي الضوء والاهتمام ، و ذلك من خلال كتابيه "**طروس**" "palimpsestes" و " **عتبات** " "seuils" حيث يعد الكتابان محطة رئيسة لكل عمل يسعى إلى فك شفرات خطاب عتبات النص [1]، و يميز ج .جينيت بين نمطين من العناوين : "العنوان الغرضي (titrethématique)المحيل على مضمون النص و محتواه و العنوان الشكلي أو الريماطيقي (rhématique) المشير إلى النص ذاته من حيث شكله و نوعه الأدبي و جنس الخطاب فيه "[2].

كما اهتم بالنصوص المصاحبة بعد " ج . **جنيت** "لفيف من النقاد أبرزهم: " **كلود دوشيه** " و " **فيليب هامون** " كما يعتبر **حميد لحميداني** من أوفى النقاد العرب الذين ترسموا خطى " جينيت ".

ويعترف الناقد " **عبد الرزاق بلال**" " للدرس الغربي بالسبق إلى عقلنة موضوع العتبات و تنظيمه نظريا و تطبيقا ، فإن ذلك لا يمنع من وجود التفاتات عربية دقيقة في الموضوع ، وجدت متناثرة هنا و هناك ، لكن يعوزها الجهاز النظري ، العام الذي يؤطر القول فيها "[3]

جمالية العتبة النصية:

1. العنوان:

يعد العنوان المنفذ الأولي لاستنطاق معاني النص و دلالاته فهو من العتبات النصية التي تحدد هوية النص، و قد عرفه محمد فكري الجزار،بقوله : " العنوان للكتاب كالاسم للشيء،به يعرف و بفضله يتداول ، يشار به عليه، و يدل به عليه ، يحمل وسم كتابه ، وفي الوقت نفسه يسمه العنوان . بإيجاز يناسب البداية . "[4]

إنّ العتبات الداخلية تعتبر مجموعة من النصوص الموازية لكل كتاب وتكون ضمن خصائصه، وهذا الجزء من أشكال العتبات هو من قائمة طويلة من العناصر التي تبني عليها العتبات الداخلية أو النص المحيط، و عليه تكون العتبات الداخلية لكل خطاب مادي يأخذ موقعه داخل فضاء الكتاب مثل: العنوان أو التمهيد ويكون أحياناً مدرجاً بين فجوات النص مثل: عناوين الفصول أو بعض الإشارت.[5]

و تشيرُ العناوين و صورة أغلفة الكتب إلي ما يريد الكاتب أن يبين للقرّاء،و لهذا الأمر أهمية بالغة عند الكتّاب والقراء.

كما أن " إسم الكتاب أو العمل يكفي للحصول على وصف للخالق ونفسيته، كما يعتقد أن المؤلف لا يحتاج إلى أن يقرأ المؤلف آثاره، بل يمكنه أن يفصل رأيه عن طريق قراءة عنوان آثاره؛ لأنَّ العنوان تتكفل بتسمية العمل و أن تسمي كتابا يعني أن تعيّنَهُ، تعنونه كما نسمي شخصا تماما.[6]

إن أول ما يتلقي بصرياً، أو يشاهد هو لوحة الغلاف، باعتبارها مناص ذو مظهر أيقوني، أو عتبة بصرية، لها وظيفة افتتاحية أو تمهيدية، فالعلاقة بين لوحة الغلاف و العنوان و النص هي علاقة تبادلية و تفاعلية و تكاملية في آن و هي مقصودة، لايمكن تجاهلها، فلوحة الغلاف هي بنية نصية علي قدر صمتها هي ناطقة، و علي قدر جمودها هي متفاعلة و مفاعلة.

كما يعَدُّ الحديثُ عن الألوان من أساسيات دراسة العتبات النصية، و علاقتها بما يحتويه العمل الأدبي حيث تقوم الألوان بدور هام في التأثير علي نفسية الفرد، فالميل إلي بعض الألوان يرجع إلي ظروف حياتنا و ثقافتنا كما يرجع إلي الظروف النفسية التي يمر بها الفرد.

عنيت الدراسات النقدية في السنين الأخيرة بموضوع العنوان بوصفه المدخل أو العتبة التي يجري التفاوض عليها لكشف مخبوءات النص الذي يتقدمه ذلك العنوان، و اذا ما عُدَّ العنوان جزءا مهما من أجزاء النص أو مفتاحا له، و رأسا لجسده، فإن الحاجة الي معرفته باتت ملحة، طالما و قّرت فهما يضاف الي فهم المتلقي للنص. [7]

وقد ورد العنوان في لسان العرب لابن منظور: «في باب العين و في مادة عَنَنَ: عنّ الشيء يَعن و يعُنُّ عَنَنا و عنواناً: ظهر إمامك وعَنَّ ويّعنُّ عناً و عنواناً واعتنّ: اعترَضَ وعرَضَ و

عَنَنتُ الكتاب وأعننتُه، أي عرضتُه له وصرفته إليه، وَعن الكتاب يعنه عَناً وعَّننته: كعنوَنة وَعَنونَة بمعنى واحد مشتق من المعنى». [8]

أما دلالته الاصطلاحية فهو «مقطع لغوي أقل من الجملة نصاً أو عملاً فنياً».[9]

كما أنه يعتبر الركيزة الأساسية للتعرف على النص فهو يعني إسم الكتاب كما نسمي الأشخاص وهو يحمل من قصدية فاعلية لكشف الباطن بفعل إرادة ملزمة، للبداية وإخراج المعنى".[10]

تفطن المبدع العربي إلي أهمية العنوان، و أدرك وظائفه من خلال طريقة إخراجه، و مراعاة مقتضي الحال للمتلقين لهذا الإبداع الذي يعكس قراءتهم، فالعنوان يؤدي دور المنبّه و المُحَرّض، فسلطته الطاغية تضفي بظلالها علي النص، فيستحيل النص جسدا مستباحا لسلطته، ثم إنه نقطة الوصل بين طرفي الرسالة: ممثلة في ثنائية «المبدع و المستقبل» إنه يعَدُّ بداية اللّذة، هذا ما جعل العنوان يحرك وجع الكتابة الذي يتحول تدريجيا إلي وجع قراءة متواصلة في صيرورة يتساوي فيها النص مع الناص، لذلك كان لزاما علي المبدع أن يراعي فنيات فنّ العنونة ليجعل منه مصطلحا إجرائيا في المقاربات النصية و عليه فالعنوان ضرورة كتابية للولوج إلي أغوار النصوص و استنطاقها .

إن العلاقة بين العنوان والنص علاقة سببية في الغالب أكثر منها ترتيبية لأن وجود العنوان يعني وجود المعنون، ووجود الأخير يفترض وجود العنوان وفي الحقل الأدبي فإن العنوان في الغالب يحيل إلى العمل الأدبي وخصوصيته بما يحمل من إشارات تدل على جنس العمل الذي يتقدمه ذلك العنوان[11]. فالعنوان ليس مجرد إسم يدل على العمل الأدبي إنما هو مدخل إلى العمارة النص وإضاءة بارعة وغامضة لمراته المتشابكة. ينقسم العنوان إلى نوعين: مركزيٍ وأنواعٍ فرعية، وأحيانًا عناوين النصوص الداخلية أيضًا كما هو الحال في رواية ابنة الرماد لفوزية عرفات .

2 . ظاهرة الاغتراب في المنجز الروائي:

. **الاغتراب لغة:** جاء لفظ الاغتراب في المعاجم العربية حاملا لمعنى البعد عن الوطن لتقتصر على المعنى المكاني فقط، حيث جاء في كتاب العين، يقال: غربَ في الأرض وأغربَ إذا أمعن فيها، والغربة النوى البعيد، يقال: شقت بهم غربة النوى، والغرب هو المغرب والذهاب والتنحي وأوّل الشيء وحدُّه.[12]

ويَرِدُ ذات المعنى في كتاب مقاييس اللغة لابن فارس إذ يقول: «الغُربة البُعد عن الوطن، ويقال غربت الدار، ومن هذا الباب غروب الشمس كأنه يبعدها عن وجه الأرض».[13]

. **الاغتراب في الاصطلاح:**

لعلّ أبلغ تعريف اصطلاحي للاغتراب عند العرب القدامى هو ما أشار إليه أبو حيّان التوحيدي، حين قال: «فأين أنت من غريبٍ قد طالت غربته في وطنه وقلّ حظُّه ونصيبه وسَكَنُه؟ وأين أنت من غريبٍ لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان[14]» فالاغتراب على حدِّ هذا الوصف هو شعور الفرد بالانفصال عن الذات والآخرين أو كليهما.

و قد اسهم الباحثون المعاصرون في تقديم تعاريف شتى مستمدة من الفلسفة الحديثة و التحولات المختلفة التي عرفتها الحياة الجديدة فيرى بسّام فرنجية أنّ «الاغتراب شعور بوجود علاقة انفصالية بين الواقع والحلم[15]»وهنا يحمل الاغتراب دلالة الانفصال والصراع القائم بين الحقيقة والحلم، وهو ما يجسد الشعور بالسخط والقلق.

ويرى عبد اللطيف محمد خليفة أنّ "الاغتراب يختارُه الإنسان لعدّة أسباب منها: «عدم الانسجام مع المجتمع والعجز عن الانتماء، والمخالفة في الفكر والمعتقد، وكثيرا ما يشعر المغترب بالوحدة والعزلة والفراغ النفسي، وكذلك شعوره بافتقاد الأمن وسوء العلاقات الاجتماعية»[16]

من خلال التعريفين السابقين للاغتراب يمكن القول أنّ مفهومه ارتبط أساسا بالجانب السيكولوجي، فحبُّ العزلة والشعور بعدم الانسجام والتعاسة وافتقاد العلاقات مع الآخرين، كلها جوانب مرتبطة بالجانب النفسي للإنسان.

. **<u>دلالة الاغتراب في بنية العنوان:</u>**

. إنّ السمة الأساسية التي تتمتّع بها أغلب العناوين هي الاقتصاد اللغوي في مقابل الاتساع الدلالي، فقد يتألّف العنوان من جملة إسمية تتكون من مبتدأ هو غبنة وخبر هو الرماد هذا الاقتصاد في بنية العنوان يمارس التكثيف للدوالّ المبثوثة في بنيتهِ اللغوية، أو في بنية النص الذي يتعلّق به.

وبالنظرإلى عناوين الرواية قد تقع في حقول الجملة الاسمية، و الجملة الاسمية في فضاء النحو الدلالي تعبر عن الهدوء و السكينة و الاستقرار عكس الجملة الفعلية التي تدل علي الحركية.

والمتأمل في عنوان الرواية " إبنة الرماد " يلاحظ للوهلة الأولى أنها تشترك بصورة ملفتة في بنيتها النحوية **(مبتدأ وخبر) ثم** يلاحظ القارئ أن عناوينهم تشترك بصورة أكثر إلفاتا في مستوياتها الدلالية إذ جاءت محملة ببعد اجتماعي أو وصفة نكرة أي معنى غير مباشر، وهو إعلان مبدئي عن الحجم التأثيري الكبير للعنوان في دلالة النص الروائي.

<u>البنية السطحية أو التركيب النحوي:</u>

إن المتأمل في البنى النحوية لهذه الرواية يلحظ أنها تخضع لمنوال تركيبي نحوي واحد،فعند قراءة العناوين يتبادر إلى الذهن من الأفكار ما يرسم أفقا يتوقع القارئ من خلال إيحاءات و دلالات تصنع فضاءا معرفيا و ذاكرة جديدة، من هذا المنطلق جاء التركيب النحوي، فأول ما يلفت الانتباه عند استعراض . عنوانرواية "حلب تراجيديا الحرية أو سبعة أيام في بغداد الصادرة سنة 2017 إصرار الروائية المثير على التزام نفس الصياغة الاسمية المركبة تركيبا نحويا يقوم على وظيفة النسبة بالإضافة ..

لقد استمرت الروائية في إصرارها على التزام نمط تركيبي واحد، مما يذهب بنا إلى الاعتقاد بوجود مبدأ القصد، والذي يدعونا إلى مزيد من النظر لتحديد العلائق القائمة بين المستويين البسيط التركيبي، والمستوى العميق أو البعد الدلالي.وبالعودة إلى طبيعة التركيب النحوي للعنوانين نجد أنه يربط اسمين برابط النسبة إلى مكان منعوت، مما يخضع هذا البناء للتأويل :

ابنة /الرماد / حلب تراجيديا الحرية

مبتدأ . خبر/ مبتدأ . (خبر محذوف)

نتبين أن الروائية تسعى من خلال هذا النسق الاسمي المتكرر إلى إضفاء صفة الثبات تتجاوز حدوده وتنعتق من قيود النسبية والافتراض، فالتركيب الفعلي أو الاسمي مرهون بدلالتي الثبات والتغير، إن التركيب الاسمي ثابت مستمر ويقيني، أما التركيب الفعلي فمتغير محدود و نسبي، هذا التركيب الاسمي يجسد فكرة يقينية ثابتة ترصد مبدأ و منطلقا يؤكده المتن.

كما تنأى البنية النحوية واللغوية في العنوان الأول عن تلك الانحرافات التي نجدها في الشعر وحتى في المنجزات السردية الراهنة ف"الابنة وجمعها بنات وتستعمل في تسمية بنات الأقارب كابنة العم والخال مثل "ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها "كما تستعمل في التعبير عن بنات الأفكاروهي الخواطر بنات الدهر وهي الشدائد بنات الصدر و هي الهموم والوساوس هي الصبية مؤنث الابن .....و الرماد جمع أرمدة هو ما تخلف عن احتراق المواد وهو الناعم من فتات الحجارة، و اليابس من الطين "[17].

وهو عنوان فيه نوع من الإثارة والإغراب إذ كيف ينسب إلى الاسم ومن الأسماء الخمسة للرماد و هو بقايا الاحتراق؟

البنية العميقة: المستوى الدلالي:

إن الروائية تحاول كسر أفق توقع المتلقي منذ العتبة الأولى و كأنها تحاول استفزاز

القارئ و دفعه لاستكناه دهاليز المتن، وإذا تجاوزنا النظر عن البنية السطحية في مستواها التركيبي، إلى ما وراء ذلك يتبين لنا أن العناوين عند الروائية كانت محملة بمشاعر فياضة نابعة من الأعماق.

وعلى الرغم أنّ العنوان لايمكن تحديدُه بكلمة أو جملة، ثمّ إنّ الكلمة الواحدة قد تكون جملة في العُرف النحوي وقد لا تشكل مجموعة كلمات جملة.

نلحظ كيف تنتقل النكرة من فضاء المجهول والتنكير إلى فضاء المعلوم و التعريف من خلال المضاف إليه بوصفه معرفة و علي هذا النحو تكتسب النكرة سمة المعرفة لتمارس التحديد و التسمية و بالتالي تمنح التسمية النص شكلا و هُوية.

بعض العناوين تعتمد الحذف الصياغي.

إذ الدّوالّ الظاهرة تمثل خبرا قد يكون لمبتدأ فيه محذوفاً، تقديره هو أو هي، وقد تكون هذه الدوالّ مبتدأً و النصّ هو الخبر؛ في عنوان ابنة الرماد أو حلب تراجيديا الحرية أو سبعة أيام في بغداد»، حيث حذْف الروائية للمُسند إليه، أدّي إلي شحن المسند بدلالات مضاعفة و ترك ثغرة تصدم القاريء و تستفزّه من خلال خلق العديد من الأسئلة.

كما يمنح هذا الحذف فرصة لتخيل المسند إليه الذي يختلف عن الآخر حسب تخيل القارىء والمخاطب.

والإضمار يحتاج عادة إلى تقدير للمحذوف، و من ثم يحتاج إلي مزيد من التأويل؛ إذ هو بهذه الهيئة يتعدد تأويله كما تتعدد تقديرات إضماراته. كونه نكرة اسماء **كَ «حلب تراجيديا الحرية»**،يزيد الغموض إضافة على التخيل و الأسئلة لأنّ كلمة نكرة تدلّ بتنكيرها علي لانهائية التآويل.

وهذا يرجع إلى إحدى وظائف العنوان هو الإثارة؛ «الوظيفة الأولي للعنوان التي تدفع إلي خلق وظائف أخري له كالإثارة، إذ لا يتوقف العنوان عند الإخبار فحسب، و إنّما هو إخبار فيه شيء من الإضمار، و الحذف ليس علي الصعيد الدلالي فحسب، بل علي صعيد الصياغي أيضاً، إذ إنّه بشكله هذا يضع سؤالا و يثير إشكالاً و يدفع التأويل إلي أقصي مداه.

إنّ العنوان –بتركيبه هذا-يضمر عنصراً محذوفاً صياغياً يتعدّد تقديره بتعدّد القراءات، فقد يكون المضمر مبتدأ محذوف، أو أن الظاهر مبتدأ خَبَرُه النص. إن ذلك كله يعمل على تشويش وصولا الرسالة بسلاسة إلى القاريء، ومن ثمَّ يشكل ذلك علامة تدفع إلى جعل القاريء يسعي إلى إستهلاك النص فعلياً "[18].

. العنوان الفرعي (العناوين الداخلية)

في بعض الروايات يسعي الأدباء العرب إلي انتخاب عنوان إحدى فصول الرواية لتحويلهإلى مظلة عنوانية تحتوي على العناوين الأخرى و تُلقي بظلالها علي النحو الذي يتحول فيه إلي عتبة عنوانية كبري.

معني هذا أنّ الرواية أخذت اسمها عن ظرف كتابي معين و بطبيعة الحال فإنّ عوامل كثيرة تتدخل في هذا الاختيار".

دلالة اللون في بنية العنونة:

لقد هيمن توظيف بعض الألوان دون غيرها في الشعر العربي الذي تغنى بالثورة الجزائرية المجيدة و خاصة اللون و الأحمر و الأبيض فاللون الأخضر يذكّر الروائية بالمشاعر المتأججة لشخوص الرواية ويتمثل اللون الاحمر رمزا لتجربة عرفات في التعبير عن الإنسان المقهور والصراع اليومي من أجل الأمان و الدفء العائلي و الاجتماعي.

واضح من هذه العناوين أنّ موضوعها هو الوطن و الحب، فالكاتبة ترى أنّ الوطن هو ما يعكس حالة الانتماء و الاعتزاز بالهُوية الأُم فهي تؤمنبقدسية الوطن.

تتسم بعض العناوين بتوظيف الألوان، فاللون هو مؤشر دلالي قوي جدا في فهم مقصدية النصو هو الذي يشجع على التخيل الهادىء و التأمل الباطني، و يخفف من حدة ثورة الغضب، و يخفف من ضغط الدم و يهَدِّىء النفس.

فاللون الرمادي الباهت يتعانق و الصدى الباهت للذكريات الهاربة في غياهب الذاكرة المنسية. هي السواد والاغبرار وتؤكّد علي حضور النغم الحزين.

.اللون الطاغي في لوحة الغلاف هو الرمادي و الأحمر حيث صورة امرأة جزؤها العلوي أي الظهر و اليدين و الرأس باللون الرمادي و الجزء السفلي عبارة عن فستان أحمر عليه عنوان الروايةواللون الأزرق الليلي يحف صورة المرأة و يطوق إطار لوحة الغلاف كخلفية له و في الأعلى جنس العمل و هو الروايةو كتب العنوان بخط النسخوفي أسفل الغلاف توجد دار النشر "دار الرافدين " لبنان بيروت كما تضمنت الغلاف الخلفي عدد صفحات الرواية البالغ 157 صفحة.

يرمز اللون الأحمر إلى الحقد والثأر ويأتي هذا اللون ليدلّ علي النضال و الشهادة وقد يدل أحيانا علي مدلول مغاير لمدلوله، إذ يدل –في بعض الأحيان-علي الجريمة و القتل والظلم عندما يتصل هذا اللون بمشاعر العداء.

مظاهر الاغتراب في رواية ابنة الرماد:

يعاني الفرد العربي والمثقف على وجه الخصوص ألوانا شتى من الاغتراب خاصة حين تنازعه عقائده وانتماءاته وما فتح عليه من طوفان العولمة وطغيان الثقافة الإنسانية وسط مجتمعات مغلقة قد أنهك كاهلها هموم الحياة وأتى على جزء كبير من شخصيتها ومقوماتها تاريخ طويل من الخلافات والطائفية وكذا استعمار رسخ في خلد أبنائها عقائد شتى جعلت منها أمماً مختلفة وطوائف متناحرة بدل أن يكونوا أمة واحدة.

الاغتراب ودلالة العنوان:

ليس غريبا أن تكون العناوين منتقاة بشكل يجذب القارئ إليها وكل ما كان الاختيار موفقا كلما زاد من قيمة العمل فالعنوان خيط تنتظم فيه كل أحداث الرواية يسري في حناياها تتلمسه في كل مشهد من مشاهدها، فهو كالدم في الجسد أينما بحث عنه في أي عضو منه ستجده حاضراً. واختيار فوزية فرعون لهذا العنوان الغريب غرابة أحداث الرواية، غربة اليتيم في عائلة لا ترحم، غربة مجتمع هجين قد ضم من الطوائف والإثنيات والمذاهب ما يجعله في تدافع دائم بينها، غربة مثقف منفتح يخالف قوانين مجتمعه، شاذاً عنهم يرفض السير في فلك القطيع، غربة امرأة تقف عاجزة في إصلاح واقع مرير يفاجئها بالنكسة تلو النكسة. لقد كانت كحطب حولته عوادي الزمن إلى رماد، فقد اضطرمت النار في كل تفاصيل حياتها، وأتت على كل مراحل عمرها، وأحرقت كل مراكب النجاة المحتملة

بالنسبة إليها ولم يبق منها إلا مجرد رماد يدل على أنها كانت هنا يوماً ما. لقد كانت قوة احتمالها وصبرها على تلك الشدائد وعصفها كاحتمال الرماد للريح العاصف إنها تتمثل بهذا العنوان قول الله تعالى: ﴿**كرماد اشتد به الريح في يوم عاصف** ﴾[19] فالرماد ذو ذرات دقيقة تتطاير وتتلاشى أمام أبسط هبة ريح. إنه الحال الذي آلت إليه رحيل بطلة الرواية، وصاحبة الرواية تقدم هذا التفسير عندما تكلمت عن صبر وجلد امرأة أتعس منها حظا وأبأس منها حالاً لكنها صابرة مصابرة «لم لا أكتفي بكل ما قدمه الله لي وأنتظر المزيد بورع وامتنان، أنا حقاً امرأة من رماد، امرأة لا تمتلك من القوة شيئاً وتطير بخفة مع أول هبة هواء، وكم هي امرأة قوية جبارة على الألم مليئة من التحدي لا تعرف الاستسلام رغم ابتلاءات القدر لها، إنها امرأة حديدية.»[20] يبدو ضعف رحيل واستسلامها لأقدارها استسلام الرماد أمام جبروت الريح حتى في اختيار ألوان زينتها وقد أيقنت ذلك عندما عرضتها على المرأة أم نجيب (زوجت جارها في القرية) التي تعتبرها مثالا للصبر والتحمل ومواجهة القدر «كم أحس بضعفي أمام جبروت هذه السيدة (...) انظري إلى هذه الألوان لعلها تناسب بشرتك (...) لا لم تعجبني، إنها ألوان للموتى لا للأحياء»[21].

لقد كان العنوان بمعانيه العميقة يسري في حنايا النص منذ الوهلة الأولى وحتى السطر الأخير لأن كل محطة من محطات حياة رحيل كانت تنتهي بمصير رماد عبثت به الرياح فلم يكن له قوة لمواجهتها بل يتلاشى في الأفق.

تطالعنا الروائية في مستهل الرواية بأبشع أنواع الاغتراب (الاغتراب الاجتماعي) حيث تختصر الروائية القصة منذ البداية وتخبرك بلبها « تؤكد على أنها إنسانة تعاني بصمت، حتى ابتسامتها التي تتكلف كثيرا في إظهارها، تخفي خلفها الكثير ابتسامة تخفي ماضيا قاسيا وعذابا شديدا » [22]

تعتبر المرأة في المجتمعات العربية من بين ما يعتز به الرجل كونها تعد شرفه وعنوان فحولته فقد أحاطها المجتمع بكثير من الطابوهات التي إن تجاوزتها فلن يغفر لها المجتمع ذلك مهما كان المبرر لذلك نجد الكثير منهم قد ذهبن ضحايا لعدم تقدير المجتمع لظروفهن مما يوجب لهن الغربة الطوعية أو القهرية. فأمها لم تكن كباقي الأمهات وأبوها لم يقدم لها الرعاية الكافية بل سلط عليها زوجته الثانية كما أن تجربتها بالزواج لم تكن ناجحة بل أقرب إلى النكسة لما سبقها من أحلام وردية ثم بعد ذلك كله يضاف إلى ذلك كله نظرة المجتمع لمثل هذا النوع من النساء.

للمجتمع طقوسه الخاصة وفكره الجمعي وعاداته وتقاليده التي يرى كل من يخرج عنها شاذا يستوجب عقابه ورحيل لم تكن ممن يسير في ذلك المجتمع الذي تعيش فيه بل فضلت العزلة تقول الروائية «كانت الوحدة التي أعيش في كنفها وحدة إرادية، اخترت وحدتي إراديا وربما اعتدت عليها،انكفأت عن العالم الخارجي (...) استغنيت عن الأصدقاء وعن الحياة الاجتماعية الصاخبة التي تعيشها الفتيات في عمري ».[23]

عند تصفحنا الرواية لن نجد عناء في اكتشاف مزيج مرعب من الغربة وبالأخص النفسية منها فبطلة الرواية تذهب لطبيب نفسي تبغي دواء ينقذها من عالمها الكئيب الذي يؤرقها ويذهب نومها «لجأت إلى كطبيب نفسي لا لأنها تريد الفضفضة بل لأنها تبحث عن دواء يساعدها على النوم، دواء سحري يجنبها هذا القلق الذي يطاردها كل ليلة كشبح مخيف»[24]. وقد أثبتت الدراسات النفسية نجاعتها في كشف الغربة من خلال محاولة الغوص في اللاشعور الخاص بالمريض (في نظرهم) لأن «اللاوعي في مدرسة التحليل النفسي هو نظرية الاغتراب التي يتأسس عليها اغتراب الإنسان المعاصر منذ الطفولة »[25]وهذا ما أشارت إليه الروائية في معرض تمهيدها لسرد قصة رحيل . «قصت لي خلال ثلاث جلسات متتالية بعض الحوادث الأليمة التي عانت منها في طفولتها»[26]ورغم ما تعانيه إلا أنها غريبة من حيث تحملها لكل تلك الآلام حتى إنها لا تظهر ذلك على خلاف مألوف الناس وانكسارهم أمام مثل هذه الظروف الصعبة «وأنا حتى الآن أتساءل كيف استطاعت رغم كل ما مرت به أن تحافظ على هدوئها وكيف تستطيع طفلة تحمل كل تلك الحوادث المؤلمة دون أن تنحرف أو تذوب في عالم التشرد»

تفتتح الروائية روايتها على لسان البطلة بجملة أقسى ما يمكن إذ تصب حمما من الغضب على نبع الحنان وفيض الطمأنينة فتأتي بجملة من الأوصاف التي تذيب هم الجبال «أنا لا أحن إلى خبز أمي كمحمود درويش، فأمي لا تعرف كيف تخبز، ولا أشتاق إلى قهوتها التي كانت تمتنع عنها خشية اصفرار أسنانها البيضاء، أنا لا أخشى الموت خجلا من دمع أمي، فأمي ماتت دون أن ترحم دمعي»[27] إنه سيل من العتاب لأمها التي لم تعطها ما تعطيه كل أم وخاصة وأن الاشتياق إلى حضن الأم ودفئ حنانها لا يقاوم ولا يقدر ذلك إلا محروم .

وذات المرارة نستشفها من خلال سرد أحداث انفصال رحيل وأبيها وزواج والدها من امرأة أخرى وإهماله إياها «رموا بي يوم زفافهما وبعد أن دخلا إلى خلوتهما في غرفة في الطابق العلوي من المنزل، غرفة صغيرة باردة جدا (...) وأصدقكم القول أني منذ وفاة أمي فقدت ليس أمي وحسب بل أبي أيضا»[28]

تثير الوحدة هواجس النفس وتغذي جنوح الخيال إلى الآفاق الرحبة وتجعل من الروح أكثر إحساسا بالألم والتماهي مع الموجودات من غير البشر «اعتدت أيضا فراغ ذلك الطريق ليلا، حيث يصبح غريبا مثلي ومقفرا كالحياة التي فضت عليّ، أصبح ذلك الطريق كل حياتي، فالصديق يمكن أن يكون أحيانا طريقا، عندما تفرغ حياتنا من الصداقات البشرية.»[29]

إن للموت جلاله ومهابته فأصحاب النفوس العادية يهابونه ويجلونه ويحدث في أنفسهم أثرا عميقا وجرحا غائرا لما تعنيه النفس من آلام الفقد وصعوبة فراق الحبة لكن يحدث أن يتبلد الحس وتتجمد العواطف وتقسو المشاعر فلا يحرك الموت في النفس سواكنها ولا تهاب سلطانه عندما تستوي الحياة والموت في نظر الإنسان فيحس نفسه غريبا عن عالمه الذي يعيش فيه ربما يرى في الموت انتقال من حال إلى أخرى لعل فيها من الراحة ما يبحث عنه وربما تمكنت من نفسه القسوة التي كابدها حتى تحجر قلبه وعاد يهمه فراق أحد بعدما بلغه من حزن وألم وهو بالذات ما وصلت إليه حالة رحيل التي فارق أحبابها الواحد تلو الآخر «وصلني نبأ موت جدي بعد انتقالي إلى العاصمة بعد أيام قليلة، الغريب أني عند سماع الخبر لم يرمش لي جفن، ولم أشعر بأي حزن عليه، وعندما لا يثير رحيل أحدهم أي نوع من مشاعر الحزن فينا فإنه مؤشر عاطفي خطير»[30]

إن الهزات النفسية المتتالية عودت رحيل على طعم الانكسار فكأن الموت بالنسبة إليها قد فقد جلاله ومهابته، وكأن الحزن أصبح من يومياتها فليس بطارئ يحسب له حسابه. فأحلامها تلاشت كلها الواحد تلو الآخر رغم توالدها والتمسك بها حتى النهاية واختلاق الحلم وراء الحلم.

حضور المكان في وجدان الإنسان له وقع خاص فالأماكن تألفنا ونألفها، ونضفي عليها من الحميمية والقداسة ما يجعلها جزء منا لكن تغيرها على ما اعتدناها عليه يشعرنا بالغربة عنها أو ربما يحل فيها من يفقدها مكانتها في أنفسنا فنشعر بغربتنا فيها رغم ما كان بيننا من صلة قوية وشعور وثيق ورحيل وهي تصف لنا بيروت التي كانت أجمل عاصمة وكيف أضحت بعد أن وضعت الحرب الطائفية أوزارها«بعد عودتي أحسست أن بيروت هرمت، كل ما فيها آثار لشيخوخة مبكرة، طرقاتها المجعدة، غاباتها العارية، شواطئها التي أصبحت إسفلتية، قمامتها التي لا تليق بفاتنة كبيروت (...) والنجوم أصبحت أكثر بعدا عن الأرض، وحدها الشمس تدنو وتدنو بلا توقف وكأنها تريد إحراق هذه المدينة المحتقنة»[31]

ربما لم تكن بيروت هي التي تغيرت بقدر ما تغيرت نظرة رحيل إليها فنحن من نعطي المكان رهبته أو جماله أو قبحه إنه ارتباط نظرتنا للأماكن بذكرياتنا فيها فلطالما اتخذ العرب القدامى من المكان رابط استدعاء للأحبة وأيامهم الجميلة كما كانت الأماكن مدعاة عذاب وذكريات تهيج الأحزان في النفس. لقد كانت رحيل تعكس غربتها واغترابها على مدينة بيروت فتراها بعين الساخط على ما آلت إليه.

الخاتمة:

اختارت الروائية عناوين قصيرة ذات دلالة واسعة بأشكال عدة وهذا يدلّ على ثقافتها الواسعة و الاشتغال على معطيات نصية ذوات جاذبية حيث يثير الانتباه عند القارىء.

تتميز عناوين فوزية عرفات باقتصادها اللغوي مع الاتّساع الدلالي وبالحذف الذي يولّد الإيهام.

إنّ اختيار الروائية للعنوان يعكس ثقافتهاالواسعة، التي منحتها مخزوناً كبيراً من الأفكار المُعبّرة عن رؤاها، لجماليةً عن قدرتها علىاكتناه طاقات اللغة التعبيرية، وإيحاءاتها الفنية التي تجعل النص أكثر قابلية للتأويل.

العنوان الرئيس للرواية قد تكون كلمة أو عدة كلمات حيث لايمكن تحديده بكلمة أو جملة والعناوين الداخلية متعدّدة و كثيرة حيث تشتمل على عدّة موضوعات و تضمّ معانيَ ساميةً واسعة.

استخدام الروائية اللون في بنية العنوان ليس صدفة بل له ارتباط وثيق بالنص الأدبي في كتبه حيث نستطيع أن نستنتج أنّ اختيار الأديب العنوان، الشكل، اللون، الصورة يشدّ انتباه القاريء .

. تعبير الروائية بالنكرة دون المعرفة للعنوان دلالة على العموم والشمول والقارئ يتخيل في كل معاني الوصول إلى الغاية.

الهوامش:

1- خالد حسين حسين: في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية ، دار التكوين سنة 2007 دمشق، ص 309

2-Genette (Gerard).Seuils, ed, seuils, paris, 1987, p 75.

3-عبد الرزاق بلال : مدخل إلى عتبات النص ، أفريقيا الشرق ، سنة 2000 ص 26

4-محمد فكري الجزار ، العنوان و سيميوطيقا الاتصال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة 2006، ص 15.

5-نبيل منصر : الخطاب الموازي في القصيدة العربية المعاصرة ، دار توبقال للنشر و التوزيع بيروت الدار البيضاء سنو 2007 ص 27 .

6-ابن منظور، 1997، ج4: 437 بالتصرف

7-ضياء راضي الثامري : العنوان في الشعر العراقي المعاصر أنماطه و وظائفه ، جامعة البصرة ، كلية الآداب مجلد 9 20.سنة 2010 ص 13

8-ابن منظور أبو الفضل جمال الدين : لسان العرب ، مجلد4، مادة (عنن)(باب العين)دار صادر بيروت ط 1 سنة 1997 ص 315

9-سعيد علوش : معجم المصطلحات الأدبية ،دار الكتاب اللبناني (د ط) سنة 1983 ص 153

10-ناصر شاكر الأسدي : التحليل السيميائي للخطاب ، (قراءة في حكايات ألف ليلة و ليلة) ط 2 دار السياب للطباعة و النشر سنة 2009 ص 154

11-ناصر شاكر الأسدي: التحليل السيميائي للخطاب، (قراءة في حكايات ألف ليلة وليلة)ص 14

12-الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، د.ط، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، 1980، ج4، ص:410.

13-ابن فارس، مقاييس اللغة، ط1، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، 1991، ج4، ص:42.

14-أبو حيّان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تح: عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص:113.

15-بسّام فرنجية، دراسات في الرواية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982، ص : 34.

16-عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب، القاهرة، 2000، ص : 140-145.

17-معجم المعاني الجامع، معجم عربي.

18-عبد الحق بلعابد : عتبات جيرار جنيت من النص إلى المناص ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون بيروت ، منشورات الاختلاف الجزائر ط 1 ص 74 .

19-سورة إبراهيم الآية 18

20-فوزية عرفات، ابنة الرماد، ط1، الرافدين، بيروت لبنان ، 2018، ص: 118

21-المرجع نفسه، ص: 119- 120

22-ابنة الرماد، ص: 5.

23-ابنة الرماد، ص: 16.

24-ابنة الرماد، ص: 6.

25-أميرة علي الزهراني ، الذات في مواجهة العالم ، تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية ، ط1، المركز الثقافي العربي ، . 2007 ، ص 33

26-ابنة الرماد، ص : 5.

27-ابنة الرماد، ص: 9.

28-ابنة الرماد، ص: 39.

29-ابنة الرماد، ص:42

30-ابنة الرماد، ص:59

31-ابنة الرماد، ص 57